

## الفصل الخامس

### أغراض القسم ودواعيه

#### أ . أغراضه

قال الطوسي : القسم جملة من الكلام يؤكد بما الخبر، بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ، أو في حيز المتحقق، على طريقة : بالله إنه لكذا<sup>(١)</sup>.

وصرح الرازي: إيراد القسم للتأكيد المحض، كما هو عادة العرب<sup>(٢)</sup>.

وصرح ابن القيم: قد يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، وقد يراد به تحقيق المقسم عليه<sup>(٣)</sup>.

---

(١) التبيان ٤/٤١٥، ٥٠٦/٩، ١٩٠/١٠ . وانظر الزركشي ٤٠ . القطان ٣٠٠ .

السامرائي ٥٦ .

(٢) مفاتيح ٢٦/١٠٣ . الفراهي ٥-٧، ٩ . الرازي لعبد الحميد ٢٥١ . المدخل ١/٥٠٠ ،

٥٠٤ .

(٣) التبيان ٤٦ . معترك ١/٤٥٣ . الإتيقان ٢/١٧١ . ونسبه للسيوطي : القاضى ٨٤ .

وأتى به غير منسوب الآلوسي لعبد الحميد ٢٤٥ . قمحاوي ٣/٢٢ . رضا ١٦٤ .

وقال الزركشى: إنما جيء بالقسم لتوكيد المقسم عليه<sup>(١)</sup>.

وقال السيوطى: إقسام الله لإقامة الحجة وتأكيدا<sup>(٢)</sup>.

ورأت د . عائشة عبد الرحمن أن القسم يأتى فى مقام التوثيق لما يسبق إنكاره، أو الإقرار به<sup>(٣)</sup>.

وأعلن د . بكرى شيخ أمين: القسم أفضل المؤكدات<sup>(٤)</sup>، ود . عبد الله محمود شحاتة: القسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشئ فى النفس وتقويه، وهو — فى كلام الله — لتأكيد الحكم، وتقوية الحجة، وسوق الأدلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضيحه<sup>(٥)</sup>؛ ود . محمد بكر إسماعيل: أسلوب القسم فى اللغة طريق من طرق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده، على النحو الذى يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكين. وإذا كان المتكلم قد رأى أن المخاطب يشك فى كلامه، أكد له القول بنوع من أنواع التوكيد، وأهمها القسم<sup>(٦)</sup>.

(١) البرهان ٣ / ٤٤ .

(٢) معترك ٣ / ٤٤ .

(٣) الإعجاز ٢٢٦ .

(٤) التعبير ٢٤٦ .

(٥) علوم ٢٧١ — ٢ .

(٦) دراسات ٣٦٣ .

## ب - دواعيه

يبدو أن هناك من استكر أقسام القرآن. وقال : ما معنى القسم منه ، سبحانه ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن ، فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار؛ وإن كان لأجل الكافر، فلا يفيد .

وتصدى أبو القاسم القشيري للإجابة فقال : إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها. وذلك أن الحكم يُفصل باثنين : إما بالشهادة، وإما بالقسم. فذكر - تعالى - النوعين حتى لا يبقى لهم حجة <sup>(١)</sup>.

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله : «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ» <sup>(٢)</sup> صاح قائلاً : من الذى أغضب الجليل حتى أجهأ إلى اليمين <sup>(٣)</sup>.

وتصدى له الزمخشري فقال : فإن قلت : الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه . فهبْ أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان، وأقسم عليهم جهد القسم ، فيمين من هو في معتقدهم مُفتر على الله كذبا، كيف تكون مصححة لما أنكروه ؟

وأجـاب : هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يُتبعها الحجة القاطعة واليئة الساطعة، وهى قوله «لِيَجْزِيَ» <sup>(٤)</sup>. فقد وضع الله فى العقول، وركب فى

(١) الزركشى ٤١ / ٣ . معترك ٤٥٠ / ١ . الإتيان ١٦٩ / ٢ . المدخل ٥٠١ / ١ .

فمحاوى ٢٢ / ٣ . خليف ٩٦ .

(٢) سورة الذاريات ٢٣ .

(٣) الزركشى ٤١ / ٣ . معترك ٤٥٠ / ١ . الإتيان ١٦٩ / ٢ . المدخل ٥٠١ / ١ .

فمحاوى ٢٢ / ٣ . خليف ٩٦ . وانظر الزمخشري ٤ / ٤٠٠ .

(٤) سورة سبأ ٤ .

الفرانسز وجوب أجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب، والمسيء لا بد له من عقاب<sup>(١)</sup>.

وأورد في موضع آخر خير الأعرابي، مرويا عن عبد الملك بن قريب الأصمعي (١٢٢ - ٢١٦ / ٧٤٠ - ٨٣١)<sup>(٢)</sup>.

وأورد الرازي إجابة الزمخشري ثم ذيلها بقوله : الذي أقوله أنا هو أن الدليل المذكور في قوله : «عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ»<sup>(٣)</sup> أظهر . وذلك لأنه إذا كان عالما بجميع الأشياء، يعلم أجزاء الأحياء، ويقدر على جمعها، فالساعة ممكنة القيام ، وقد أخبر عنها الصادق ، فتكون واقعة<sup>(٤)</sup>.

كذلك تصدى له الرازي في أكثر من موضع فقال ذات مرة : الناس طبقات. فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم . فإن الأعرابي الذي جاء الرسول ﷺ وسأل عن نبوته ورسالته، اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم. فكذا هاهنا<sup>(٥)</sup>.

وقال — وهو بصدد الإجابة عن فائدة القسم في إخبار النبي ﷺ عن البعث مع إنكارهم رسالته — قال : إنهم — وإن أنكروا الرسالة — لكنهم يعتقدون أنه

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٧ - ٨ . الرازي ٢٥ / ٢٠٨ .

(٢) الكشاف ٤ / ٤٠٠ ..

(٣) سورة سبأ ٣

(٤) مفاتيح ٢٥ / ٢٠٨ .

(٥) مفاتيح ١٧ / ٩٠ .

يعتقد ربه اعتقاداً لا مزيد عليه . فيعلمون أنه لا يُقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدقُ هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفي اعتقاده<sup>(١)</sup>.

وأعاد - في موضع ثالث - صياغة السؤال الذى واجهه القشيري ، فجعله: الحلف من الله غير لائق من وجوه :

الأول : أن المقصود من القسم إما إثبات المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر . الأول باطل لأن المؤمن مقرّبه سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، والمكذب لا يصدق مع القسم . فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات<sup>(٢)</sup>.

الثاني : إثبات المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق بالعقلاء<sup>(٣)</sup>.

وكان الجواب عند الرازي من وجوه أيضاً :

الوجه الأول : أنه - تعالى - قرر هذه المطالب العالية في سائر السور بالدلائل اليقينية . فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها . فذكر القسم تأكيداً لما تقدم ، لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف طريقة مألوفة عند العرب<sup>(٤)</sup>.

(١) مفاتيح ١٢/٣٠ .

(٢) مفاتيح ١٠٣/٢٦ . الرازي لعبد الحميد ٢٥١ . وأتى به غير منسوب : القرطبي ١/١٥٦ .

الزرکشی ٣/٤١ . معترك ١/٤٤٩ . الإتيان ٢/١٦٩ . الفراهي ٤ . القاضي ٨٤ .

المدخل ١/٥٠٠ . قمحاوي ٣/٢٢ . رضا ١٦٥ .

(٣) مفاتيح ١٠٣/٢٦ . الرازي لعبد الحميد ٢٥١ .

(٤) مفاتيح ١٠٣/٢٦ . الفراهي ٥ . الرازي لعبد الحميد ٢٥١ . وأورده غير منسوب : القرطبي

١/١٥٦ . معترك ١/٤٤٩ . الإتيان ٢/١٦٩ . بدوى ١٧٠ . القاضي ٨٤ . المدخل

١/٥٠٠ ، ٥٠٤ ، إسماعيل ٣٧١ . ونسبه إلى السيوطي : خليف ٩٦ . رضا ١٦٥ .

الوجه الثاني : أنه — تعالى — لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله :  
 ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقبيه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً،  
 وهو قوله : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (١) كأنه  
 قيل : قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً . فتأملوا في  
 ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد .

الوجه الثالث : أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم  
 بأنها آله . فكأنه قيل : هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي  
 في إبطاله مثل هذه الحجة (٢) .

الوجه الرابع : أن الكفار كانوا — في بعض الأوقات — يعترفون بكون  
 النبي ﷺ غالياً في إقامه الدليل . وكانوا ينسبونه إلى المجادلة، وإلى أنه عارف — في  
 نفسه — بفساد ما يقوله، وأنه يغلبهم بقوة الجدل لا بصدق المقال . فلم يبق طريق  
 غير السكوت أو التمسك بالآيمان وترك إقامة البرهان .

الوجه الخامس : أن العرب كانت تخرز عن الآيمان الكاذبة، وتعتقد أنها  
 تدع الديار بلاقع { خربة } . فلما أكثر النبي ﷺ من الآيمان بكل شريف، ولم يزد  
 ذلك إلا رفعة وثباتاً ، حصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً، وإلا لأصابه شؤمها،  
 ولناله المكروه في بعض الأزمان .

الوجه السادس : أن الآيمان التي حلف الله بها كلها دلائل . . . . (٣)

ولم يرض عبد الحميد الفراهي عن أقوال الرازي ، ونقض الوجوه التي  
 أوردتها واحداً بعد واحد .

(١) سورة الصافات ٤ ، ٥ .

(٢) مفاتيح ٢٦ / ١٠٣ — ٤ . الفراهي ٥ — ٧ . الرازي لعبد الحميد ٢٥١ .

(٣) مفاتيح ٢٨ / ١٦٦ — ٧ . الفراهي ٦ — ٨ . الرازي لعبد الحميد ٢٥٠ .

فاعترض على الوجه الأول بأن القرآن يناقضه، لأنك ترى القسم في أوائل  
الوحي أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل .

وعلى الثاني : بأنه ساكت عن بيان حكمة الصور المتنوعة للقسم. فأى فائدة  
للعدول عن القسم بالله إلى القسم بهذه الأشياء .

وعلى الثالث : ووصفه بأنه سخييف جدا، كأنه — بعد ما اعترف في  
الوجهين الأولين بأن القسم لا حجة فيه — قال هنا : إن مذهب الخصم كان جديرا  
بأن يجاب عنه بما ليس من الحجة في شيء .

وعلى الرابع : بأن فيه خلطا بين الغث والسمين، ونقضا لما قال في تفسير  
الصفات بأن القسم يتبعه الدليل، وإنما كان القسم لأجل التأكيد. والأمر كذلك،  
فإن القرآن لا يسكت على القسم .

فلو قال : لأن الدليل المحقق ربما لا ينجع في الخصم ، إذا كان قليل المعرفة  
بالاستدلال، وقليل الاعتماد على نظره، أو متهما للمتكلم بخلافة بيانه ، فيحسن في  
هذه الحالات شوب { خلط } الحجة باليمين ؛ فلو قاله هكذا لكان أقرب .

وعلى الخامس : بأنه أصاب فيما قال، لو لم يزد عليه ما قال من أن النبي ﷺ  
أكثر من الأيمان بكل شريف، كأنه أراد أنهم إذا أقسموا بشريف خافوا سخطه، إن  
كذبوا في يمينهم به . وضعف هذا القول ظاهر فإن أقسام القرآن ربما تكون بما ليس  
فيه شرف . والقرآن يهدى إلى أن لا تخاف إلا الله. وأى شؤم يخاف من التين  
والزيتون ؟ ! ثم النبي ﷺ كان يبلغ القرآن من الله ، فالقسم منه — تعالى — وهو  
لا يخاف أحدا .

فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه، وقال إن العرب كانت تحتز عن  
الأيمان الكاذبة، وتخاف مغبتها، وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا، فإذا حلف أحد،  
أصغوا إليه ؛ كان أقرب إلى ما يجاب به .

وعلى الوجه السادس بأنه يكفى لدفع القول بأنه لا فائدة للقسم. ولكن يلزم على القائل به أن يبين وجه الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه. وهذا — مع كونه ظاهرا في بعض المواضع — كثيرا ما يحتاج إلى إمعان شديد. ولعله — لهذا السبب — لم يعتمد عليه إلا في سورة الذاريات وفي بعض سور آخر<sup>(١)</sup>.

وحين أراد الفراهي أن يعبر عن رأيه الخاص، نظر في السلوك البشري عامة. فأعلن أن الإنسان ربما يحتاج إلى تأكيد خبر أو وعد منه، حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب، وتطمئن به نفسه، لا سيما في الأمور العظيمة. وهذه الحاجة التمدنية دعوتهم إلى طرق وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد. فكان ذلك أصل قسمهم<sup>(٢)</sup>.

وأرجعه مناع القطان إلى اختلاف الاستعداد النفسى عند الفرد في تقبله للحق، وانقياده لنوره. فالنفس الصافية التي لم تدنس فطرتها بالرجس، تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة.

أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل، فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الرجز وصيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها. والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم؛ والاستدراج بالخضم إلى الاعتراف بما يجحد<sup>(٣)</sup>.

كما أعاده إلى أعراف اللغة العربية. فإنها تمتاز بدقة التعبير، واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض. وللمخاطب حالات مختلفة، هي المسماة — في المعاني — بأضرب الخبر الثلاثة: الابتدائي، والطلبى، والإنكارى.

(١) إمعان ٥ — ٨ .

(٢) إمعان ١٤ . أمين ٢٣٧ .

(٣) مباحث ٣٠٠ . أمين ٢٣٧ .

فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم ، فيلقى إليه الكلام عُقْلاً من التأكيد. ويسمى هذا الضرب : ابتدائيا .

وقد يكون مترددا في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده . ويسمى هذا الضرب : طلبيا .

وقد يكون منكرا للحكم ، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفا. ويسمى هذا الضرب : إنكاريا .

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه . وقد نزل القرآن للناس كافة . ووقف الناس منه مواقف متباينة . فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد . فالقسم — في كلام الله — يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات، ويقىم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة<sup>(١)</sup>.

وروى د . يوسف خليف أن السيوطي علل الأقسام بقرب العهد من العصر الجاهلي، وأن القرآن جرى على عادة العرب في القسم . ورأى أن السببين اللذين ذكرهما السيوطي والقشيري يكمل أحدهما الآخر<sup>(٢)</sup> .

ورد انتشار القسم — في المرحلة المكية — إلى أن هذه المرحلة — في تاريخ الدعوة الإسلامية — هي التي شهدت حملات الرفض والإنكار لهذه الدعوة، والتشكيك فيما جاء به الدين الجديد من أمور غيبية جديدة على العرب ، لم يكونوا على استعداد لتقبلها، أو من أمور روحانية لم تهئ لهم حياتهم المادية فرصة الاقتناع بها .

(١) مباحث ٣٠١ — ٢ . وأتى به غير منسوب : إسماعيل ٣٦٣ . وانظر أمين ٢٤٦ .

(٢) دراسات ٩٦ .

وإذا لا حظنا أن القرآن — في دوره المكي — كان يتعامل مع العرب تعاملًا وجدانيًا، في محاولة لإثارة مشاعرهم وعواطفهم، رداً على أسلوبهم الانفعالي العصبى في التعامل معه، استطعنا أن نضيف سبباً ثالثاً لانتشار القسم في الآيات المكية<sup>(١)</sup>.

ويتضح من هذه الجولة أن الأقسام أرقّت المتكلمين من المفسرين خاصة من أمثال الزمخشري والرازي، وأن السؤال عن قيمة هذه الأقسام وتسويغ صدورها من الخالق يواجه الواحد منهم بعد الآخر. ولذلك نجد الزمخشري مثلاً يتعرض للأمر مرتين، والرازي يسعى للإجابة عنه في أكثر من موضع، وأفاض في ذلك. كذلك يتضح أن الفراهي مازال يتصدى للرازي، ويسعى — بحق أو باطل — إلى أن ينقض كل ما بنى.

ويتضح أن المحدثين اعتمدوا في اجابتهم على زيادة المعرفة بالنفس البشرية، وما تتطلع إليه، وما تقتنع به. ولكنى أخالف د. يوسف خليف في جعله القرب من العصر الجاهلي أحد دواعي الأقسام القرآنية.

---

(١) دراسات ٦٩ - ٦ .